



gassimsalihi@yahoo.com

نيلسون مانديلا.. ليس سهلا الطريق الى الحرية * (1 - 2 - 3) No Easy Walk to Freedom

قراءة وتحليل ومقاربة: أ.د. قاسم حسين صالح
مؤسس ورئيس الجمعية النفسية العراقية
أمين عام تجمع عقول

ايهما النخبة المثقفة المحبة للقراءة في زمن العزوف عنهما.

هذه الندوة مخصصة لقراءة كتاب (نيلسون مانديلا ليس سهلا الطريق الى الحرية - No Easy Walk to Freedom)..ترجمة ميرنا الرشيد واصدار دار المدى في طبعته الاولى 2019.

الكتاب كتب عنه الكثير..عربيا واجنبيا، من بينها كتاب (شخصيات غيرت العالم) تأليف نيكولاس جال، والصادر حديثا ضمن سلسلة الكتب التي تصدرها جريدة "لوموند" الفرنسية..وسأبتعد عنها جميعا بما فيها الذي نشرته المدى بمقالة طويلة في ملحقاتها الثقافية.

الفصل 1

ستكون قراءتنا مختلفة عن الذي كتب في ثلاث مسائل:

الأولى: بحكم تخصصي في تحليل الشخصية، فأنتي ساركز على تحليل شخصية مانديلا في جانبها السيكولوجي وعلاقة ذلك بالفكرة او المعتقد، ولماذا يضحّي المناضل بحياته في سبيل معتقده فيما يتخلى آخر عنها يحمل نفس الفكرة؟. ولماذا نحب نلسون مانديلا وهو من قارة أخرى؟..وعلاقة ذلك ايضا بالسيكوبولتك.

الثانية: ان معظم السجناء السياسيين العراقيين عاشوا ظروفًا كانت في بعض الحالات أفسى من التي عاشها مانديلا. ويوصفي سجين سياسي فأنتي ذلك يساعد قراءتي في فهم خبرة السجين وحواره مع نفسه في القضية التي اودعته السجن.

الثالثة: اجراء مقارنة، موازنة، اخلاقية، سياسية، فكرية.. بين مانديلا بوصفه حاكما وبين حكّام العراق.

لنبدا بتقديم شكلي للكتاب، وسأسرع في قراءة ما هو عرض وأتأني في قراءة ما هو فكر.

يقع الكتاب في (250) صفحة تنصده مقدمة جميلة للمترجمة ميرنا، ومقدمة أخرى لطبعته عام (1990) بقلم (والتر سيسولو)، وتمهيد لطبعته عام (1973)، ومقدمة رابعة للناشطة الافريقية المناهضة للفصل العنصري (روث فيرست) التي قتلت بتفجير طرد مفخخ، وتعليق لمحرر الكتاب وصديق عمره السياسي الثوري الجنوب افريقي (اوليفر تامبو) عام (1964)، يشير فيه الى ان هذا الكتاب يتضمن احد عشر مقالا لمانديلا، ومؤتمرا خطابيا عقد في الخارج، وادلة وعناوين من ثلاث تجارب تمتد لعشر سنوات بين عامي (1953 و 1963).. موضحا ان مقالات مانديلا استنسخت تماما بالشكل الذي كتبت فيه مضافا لها بعض التعديلات لتجنب التكرار، وانه تم حذف المقاطع المتعلقة بالادلة التقنية لشهادة شهود من رجالات الدولة. ويبدأ الكتاب بموضوع (ليس سهلا الطريق الى الحرية) الذي اختير عنوانا له وينتهي بمحاكمة ريفونيا التي تبدأ هكذا:

ساركز على تحليل شخصية مانديلا في جانبها السيكولوجي وعلاقة ذلك بالفكرة او المعتقد، ولماذا يضحّي المناضل بحياته في سبيل معتقده فيما يتخلى آخر عنهما يحمل نفس الفكرة؟

ان معظم السجناء السياسيين العراقيين عاشوا ظروفًا كانت في بعض الحالات أفسى من التي عاشها مانديلا. ويوصفي سجين سياسي فأنتي ذلك يساعد قراءتي في فهم خبرة السجين وحواره مع نفسه في القضية التي اودعته السجن.

اجراء مقارنة، موازنة، اخلاقية، سياسية، فكرية..بين مانديلا بوصفه حاكما وبين حكّام العراق

هذا الكتاب يتضمن احد عشر مقالا لمانديلا، ومؤتمرا خطابيا عقد في الخارج، وادلة

" انا المتهم الاول. احمل درجة البكالوريوس في الاداب، وزاولت المحاماة لعدة سنوات في جوهانسبرغ بالشركة مع اوليفر تامبو.وانني سجين مدان بالسجن خمس سنوات بتهمة مغادرة البلاد دون تصريح، وتحريض الناس على الاضراب نهاية شهر ايار من عام 1961".

وبأسم حضراتكم،نشكر المترجمة ميرنا لسلاسة اللغة وجمال الأسلوب،وشكرا للمدى على اخراج الكتاب بشكل انيق وخاليا من الأخطاء اللغوية والطباعية..وحتى الفوارز ما بين الجمل،والنقاط في نهاياتها جاءت بنسق سليم.

تعريف موجز ب (نيلسون مانديلا)

ولد مانديلا عام 1918 بقرية في اعماق الريف.وكان اسمه (روليهاهلا)الذي يعني المشاكس او مثير المتاعب، ولأن معلمته في المدرسة الابتدائية لم تتمكن من لفظ اسمه فانها اسمته مانديلا.

كرّس حياته مبكرا للنضال من اجل المساواة السياسية والقانونية لشعبه.وعرف بقدرته على التخفي وتكرهه بشخصيات متنوعة: سائق تكسي فلاح طباخ. القت حكومة الهمينة البيضاء القبض عليه ووقف في المحكمة مدافعا عن حق شعبه بالمساواة والحياة الكريمة،ووضع عام 1980 على لائحة الارهابيين الدوليين الى عام 2008 مع انه صار رئيس دولة عام 1994 في انتخابات ديمقراطية!.

اقتيد الى جزيرة روبن فاستقبله حراسها البيض بعبارة (هذه هي الجزيرة..هنا سوف تموتون).

عومل السجين مانديلا رقم (46664)المحكوم (27)عاما بوصفه سجين سياسي يسمح له بزيارة لمدة نصف ساعة ورسالة واحدة كل سنة كانت تقتطع منها ما هو سياسي.

قاد على مدار 20 عامًا نشاطات سلمية تهدف للوقوف بوجه سياسات القمع للحكومة،وحيث أدرك فشل تلك النشاطات، تبنى الحل العسكري بوصفه السبيل الوحيد لتحقيق أهدافه.

والده كان مستشارا لزعماء القبائل ومتوقع ان يصبح زعيما لكن خلافا مع الحاكم المحلي التابع للحكومة البيضاء جرّده من لقبه وثروته فانقلت العائلة لقرية صغيرة وعاشت في اكواخ صغيرة معتمدة على المحاصيل المحلية.

توفي والده وهو بعمر تسع سنوات وتولى رعايته احد افراد الاسرة الحاكمة لقبيلة ثيمبو ليعيش في مقر الحاكم،وتعرّف على زعماء القبائل الذين كانوا يقدون الى القصر الكبير في المناسبات الرسمية..وكانت احاديثهم تحكي قصص كيف عاش الافارقة بسلام واخوة قبل ان يأتي البيض.

عين مانديلا مستشارا للعائلة الحاكمة وكان متفوقا في الرياضة والملاكمة والجري وكان زملاؤه يسخرون منه لأصله الريفي.

التحق بالجامعة عام 1939 وركز على دراسة القانون الهولندي الروماني ،وانتخب عضوا في مجلس الطلبة وحصل على شهادة المحاماة ثم انخرط في الحركات المناهضة للفصل العنصري لينضم لحزب المؤتمر الوطني الافريقي عام 1942. وفي العام 1949 اعتمد الحزب التظاهرات والاضراب والعصيان المدني والمقاطعة لتحقيق اهدافه يتمتع السود بالمواطنة الكاملة،واعقل مع 150 ناشطا عام 1962 بتهمة التآمر لقلب نظام الدولة والخيانة العظمى.

اطلق سراحه في 1990، وفي 1993 حاز مانديلا وكليرك على جائزة نوبل للسلام لعملهما المشترك في نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا

على انها نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا. وفي 27 نيسان 1994 انتخب مانديلا ليكون اول رئيس اسود لجنوب افريقيا،ورفض الترشيح لولاية ثانية ليفوز بالرئاسة نائبه.

تزوج ثلاث مرات،الاولى ايفيلين ميس (1944-1957)وانجبا اربعة اطفال،والثانية ويني زيلا

ومناويين من ثلاثة تجاربه تمتد لعشر سنوات

ولد مانديلا عام 1918 بقرية في اعماق الريف.وكان اسمه (روليهاهلا)الذي يعني المشاكس او مثير المتاعب، ولأن معلمته في المدرسة الابتدائية لم تتمكن من لفظ اسمه فانها اسمته مانديلا

عومل السجين مانديلا رقم (46664)المحكوم (27)عاما بوصفه سجين سياسي يسمح له بزيارة لمدة نصف ساعة ورسالة واحدة كل سنة كانت تقتطع منها ما هو سياسي.

قاد على مدار 20 عامًا نشاطات سلمية تهدف للوقوف بوجه سياسات القمع للحكومة،وحيث أدرك فشل تلك النشاطات، تبنى الحل العسكري بوصفه السبيل الوحيد لتحقيق أهدافه

التحق بالجامعة عام 1939 وركز على دراسة القانون الهولندي الروماني ،وانتخب عضوا في مجلس الطلبة وحصل على شهادة المحاماة ثم انخرط في الحركات المناهضة للفصل العنصري لينضم لحزب المؤتمر الوطني الافريقي عام 1942

اطلق سراحه في 1990، وفي 1993 حاز مانديلا وكليرك على جائزة نوبل للسلام لعملهما المشترك على انها نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا

في 27 نيسان 1994 انتخب مانديلا ليكون اول رئيس اسود

(1958-1996) وانجبا طفلين، والثالثة غراسا ماشيل وبقي معها حتى وفاته.

في 2004 اعلن رسميا عن تقاعده من الحياة العامة وعاد ليعيش في قريته كونو.. وفي 2013 غادر مانديلا الدنيا بعمر 95 سنة. واللافت ان وكالة الأستخبارات المركزية الامريكية غطت الجانب السياسي من حياته في 13 مليون صفحة من وثائق سرية عبر الإنترنت.

لجنوب أفريقيا، ورفض الترشح
لولاية ثانية ليفوز بالرئاسة نائبه

في 2004 اعلن رسميا عن
تقاعده من الحياة العامة وعاد
ليعيش في قريته كونو.. وفي
2013 غادر مانديلا الدنيا
بعمر 95 سنة

الفصل 2

شخصية مانديلا - مؤشرات من طفولته

استقصى عالم النفس (جينفر) صاحب كتاب (التاثير الهاديء Quite Influence) طفولة مانديلا ليلتقط منها مؤشرات عن شخصيته، بدأها بمقارنة يتذكرها مانديلا بينه وبين اقرب اصدقائه اسمه جاستس (عادل) ابن رئيس القبيلة: (كنا متضادين - هو انبساطي منفتح وانا انطوائي - هو مرح وانا جدي). وتوصل الى ان استجابات مانديلا للاحداث تنطبق عليها نظرية المحلل النفسي يونك الذي صنف الشخصية الى اربعة انواع: انطوائي مقابل انبساطي، يتعامل بالمشاعر مقابل التعامل بالتفكير.. وحكم على شخصية مانديلا بانه انطوائي عاطفي يتعامل بالمشاعر.

واللافت او ما يبدو مفارقة ان الانطوائيين مثل مانديلا غالبا ما يكونوا هم افضل القادة، لأنهم يكونون مصغين جيدين ومتفاعلين جيدين مع اولئك الذين يخفون مشاعرهم. ويصف مانديلا نفسه بان يمتلك قدرة فطرية لفهم مشاعر الاخرين واهتماما قويا بالناس ودافعا اقوى لمساعدة الاخرين.

اللائق او ما يبدو مفارقة ان
الانطوائيين مثل مانديلا غالبا
ما يكونوا هم افضل القادة،
لأنهم يكونون مصغين جيدين
ومتفاعلين جيدين مع اولئك
الذين يخفون مشاعرهم

يصفه مانديلا نفسه بان يمتلك
قدرة فطرية لفهم مشاعر
الاخرين واهتماما قويا بالناس
ودافعا اقوى لمساعدة الاخرين

ان المهمة الرئيسة للقائد
ليست في ان يقول للناس ماذا
يجب ان يفعلوه بل ان يعرفه
كيفه يحقق صيغة الاجماع
باستخدام مهارة فن الاقناع
بان يجعل الناس يتوصلون الى
ان ما يقوله هو فعلا ما
يفكرون به

لدينا نظرية في علم النفس
تقول (ان الافكار هي التي
تحدد الافعال)، وان
المعتقدات هي اقواها

ان المناضل حين يصبح في نظر
شعبه بطلا فانه يتماهى نفسيا
بهذه البطولة، ويمنحه التعزيز
الايجابي من شعبه والتأييد
والاعجاب الدولي ما يدفعه
الى تحقيق هدف البطولة
ليقوم دماغه بغلق او اamate
الخلية التي تفكر بالتخلي
لتنشط وتسيطر على عملياته

(بالمناسبة كثير من الممثلين الكوميديين هم انطوائيون، بينهم الفنان جيم كيري الذي اعترف بانه يتعاطى مضادات الاكتئاب ، و الفنان روبن ويلمز الذي كان يعاني من الاكتئاب وفاجأ محبيه بانتحاره عام 2014).

وتفيدنا طفولة مانديلا بأنه عاش نوعين مختلفين من الخبرة: رعاية الاغنام بعمر الخامسة تعلم منها دلالات الفقر وحب الأرض، والعيش بعمر التاسعة في قصر ملك القرية خبر فيه حياة الرفاهية وارستقراطية القصور.

ويذكر مانديلا انه تعلم في قصر ملك القرية (تزيل) الذي تولى تربيته ما وظفه حين اصبح سياسيا.. حيث كان هذا الملك يستمع اولاً لكل المتحدثين من الجالسين ثم يبدا الكلام ، ما يعني سيكولوجيا انه يشعر المقابل بالاحترام ويمنح عقله فرصة استيعاب افكار الآخرين، مضيفاً بأنه تعلم ان المهمة الرئيسة للقائد ليست في ان يقول للناس ماذا يجب ان يفعلوه بل ان يعرف كيف يحقق صيغة الاجماع باستخدام مهارة فن الاقناع بان يجعل الناس يتوصلون الى ان ما يقوله هو فعلا ما يفكرون به.

ولدينا نظرية في علم النفس تقول (ان الافكار هي التي تحدد الافعال)، وان المعتقدات هي اقواها. ولك ان تضرب مثلاً في تاريخنا السياسي بسلام عادل الذي لم يتخلى عن معتقده برغم مساواة التعذيب.. وتلك هي الصفة الأهم في شخصية مانديلا، فإيمانه المطلق بعدالة معتقده منحتة صفة أخرى هي القدرة على التحمل وديمومته التي استمرت 27 سنة سجن في اعمال شاقة وحياة قاسية.

وصفة أخرى، ان المناضل حين يصبح في نظر شعبه بطلا فانه يتماهى نفسيا بهذه البطولة، ويمنحه التعزيز الايجابي من شعبه والتأييد والاعجاب الدولي ما يدفعه الى تحقيق هدف البطولة ليقوم دماغه بغلق او اamate الخلية التي تفكر بالتخلي لتنشط وتسيطر على عملياته و كانت هذه الالية السيكلوجية هي التي اسهمت في ان تجعل من مانديلا رمزا

العقلية الخلية التي تفسر
التخلي بأنه خلال وعار ونزي

هذه الالية السيكولوجية هي
التي اسهمت في ان تجعل من
مانديلا رمزا نضاليا وبطلا
اسطوريا

لقد اخترت المسار الأكثر
صعوبة، والذي ينطوي على
المزيد من المخاطر والمشقة
أكثر من دخول السجن.
اضطرت للابتعاد عن زوجتي
وأطفالي الاعزاء، عن والدتي
وشقيقاتي. واضطرت لإيقاظ
عملي، والتخلي عن
مهنتي، والعيش في فقر وبؤس
كما يفعل الكثيرون من أبناء
شعبي

لن اغادر جنوب افريقيا، ولن
استسلم. الكفاح هو حياتي،
وسأواصل القتال من أجل الحرية
حتى آخر أيامي

ان السجن السياسي حين يضع
رأسه على الوسادة ليلا فإنه
يحاور نفسه بين الندم على
حرمان نفسه من الحياة
كالآخرين وبين قناعته بأن ما
سجن من أجله .. قضية اختار
التضحية من وعي لتمنحه قيمة
معنى وجود الانسان في الحياة

ان الشعب الذي تضطهده
حكومة تستفرد بالسلطة
والثروة، وتتركه يعاني الفقر
والحرمان والشعور المجحف
بالحيف.. يحتاج الى بطل مخلص
يتوحدون به

جعلوا منه رمزا وطنيا يمثل
اليقين بأنه رجل الدولة الذي
سيحقق لهم الحرية والكرامة

نضاليا وبطلا اسطوريا، ليشهد بنفسه اقامة تمثال له بارتفاع ثلاثة امتار، وقيام اليونسكو بتخصيص يوم
باسم نلسون مانديلا ،ومنحه جائزة نوبل للسلام.. ولهذا فأنا أحببنا مانديلا .. وربما لسبب سيكولوجي
خفي، هو أننا نحن العراقيين، بحاجة اليوم الى مخلص عراقي يشبه مانديلا!.. ونرجو أن لا يكون حالنا
حال (غودو الذي يأتي ولا يأتي!).

مواقف.. في لقطات

الكتاب مزدحم بمواقف واحداث يصعب عرضها او التعليق عليها بالكامل،ولهذا سنختار منها ما له
دلالة خاصة،نبدأها بمقالته:رسالة من مخابر سري في تحليل لدلالاتها السيكولوجية.

في العام 1961استجاب الافارقة في عموم البلاد لدعوة مانديلا ومجلس العمل الوطني للاضراب لمدة
ثلاثة ايام.. ونجح، واصفا ما حدث بأنه ما من قوة على الارض يمكن ان توقف الشعب المظهد
المصمم على الحرية.وقد شنت الشرطة حملة تفتيش واسعة عن مانديلا فكتب رسالة من مخابر
السري،جاء فيها:

(لقد اخترت المسار الأكثر صعوبة،والذي ينطوي على المزيد من المخاطر والمشقة أكثر من دخول
السجن. اضطرت للابتعاد عن زوجتي وأطفالي الاعزاء، عن والدتي وشقيقاتي. واضطرت لإيقاظ
عملي، والتخلي عن مهنتي، والعيش في فقر وبؤس كما يفعل الكثيرون من أبناء شعبي. ساقا للحرمان
معكم في كل شبر من اراضيها حتى نحقق النصر، ولن اغادر جنوب افريقيا، ولن استسلم. الكفاح هو
حياتي، وسأواصل القتال من أجل الحرية حتى آخر أيامي).

في هذا الخطاب دلالتان سيكولوجيتان، الأولى: ان السجن السياسي حين يضع رأسه على الوسادة
ليلا فإنه يحاور نفسه بين الندم على حرمان نفسه من الحياة كالأخرين وبين قناعته بأن ما سجن من
أجله .. قضية اختار التضحية عن وعي لتمنحه قيمة معنى وجود الانسان في الحياة.. وقد حسمها
مانديلا بقرار مطلق.

والثانية: ان الشعب الذي تضطهده حكومة تستفرد بالسلطة والثروة، وتتركه يعاني الفقر والحرمان
والشعور المجحف بالحيف.. يحتاج الى بطل مخلص يتوحدون به.. وقد وجده الافارقة في شخص مانديلا،
وصاغ في رسالته ما يجعلهم على ثقة مطلقة بأن مانديلا هو المخلص، وانهم ملزمون اخلاقيا بان لا
يخذلون من ضحى من أجلهم، فجعلوا منه رمزا وطنيا يمثل اليقين بأنه رجل الدولة الذي سيحقق لهم
الحرية والكرامة وطموحاتهم التي كانت تبدو لكثيرين بأنها من صنف المستحيل.

الثانية: في المحكمة.. من متهم الى مفكر واعلامي

عام 1956بدأت محاكمة مانديلا بتهمة الاطاحة بدولة جنوب افريقيا استمرت اربع سنوات ونصف
متتالية، وتركز الاستجواب فيها على الخطابات والمقالات التي كتبها، وبرزها مقاله (ليس سهلا الطريق
الى الحرية). وكان مانديلا يجلس في قفص الاتهام طوال اليوم في اختبار صعب لقدرة الانسان على
التحمل. ومع انه كان يعرف ان عقوبة الخيانة العظمى هي الاعدام،فانه حوّل المحاكمة الى قضية شعب،
وتولى هو مهمة الدفاع عن نفسه وعن قضية وطنه. ولأن التهمة مستوحاة من الشيوعية الدولية،فان
محامي الدفاع يسأله:

- هل اصبحت شيوعيا؟

فيجيبه:

- حسنا لا اعرف ان كنت قد اصبحت شيوعيا.ان كنت تقصد بكلمة "شيوعية" انني انتسب الى
الحزب الشيوعي، وتبنيت نظريات ماركس، ولينين، وستالين، وانجلز الملتزمين بصرامة بمبادئ

الحزب..بهذا المعنى، لا، لم اصبح شيوعيا.

ويسأله:

- هل تعجبك فكرة مجتمع لا طبقي ؟

- نعم، الى حد كبير.اعتقد ان الكثير من الشر ينبع من تعدد الطبقات،من استغلال طبقة لبقية الطبقات. ويضيف بأن الامبريالية طافت جميع انحاء العالم، لاختضاع الناس واستغلالهم، وجلبت الموت والدمار لملايين الناس.

وبذكاء استثنائي يحول المحاكمة الى وسيلة اعلام لقضية شعبه.بيدأ مانديلا بطلب للقاضي بيدو غريبا (اتقدم بطلب اعفاء سيادتك من هذه القضية!) داعما حجته بقوله بانه في محاكمة سياسية كهذه القائمة على صدام بين طموحات الشعب الافريقي والاقلية البيضاء، لا يمكن لمحاكم البلاد ان تكون محايدة ونزيهة. انني اشعر بالقمع من جو الهيمنة البيضاء والظلم للانساني الممارس علينا.انا بلا ارض، لأن الاقلية حظيت بنصيب الاسد في بلدي واجبرتني على العيش في مخيمات الفقر المدقع.. لقد انهكنا الجوع ودمرنا المرض.

في اليوم الثالث من المحاكمة قدم مانديلا طلبا يقضي باقالة القاضي،لاتهامه بأنه شوهد يستقل سيارة صغيرة زرقاء اللون من طراز (فولكسفاغن)، وانه جلس في المقعد الامامي برفقة (ديركير) المساعد في الامن القومي الذي شهد ضد مانديلا،وعنصر امني اخر(الامر الذي ولد لدي مخاوف من ان العدالة تدار بطريقة سرية).

محاكمة ريفونيا

تعد هذه المحاكمة واحدة من اشهر محاكم التاريخ جرى تسجيلها على اسطوانات تعود إلى ما بين العامين 1963 و1964، في 230 ساعة،ولها يعود الفضل بانها غيرت الطريقة التي كان العالم ينظر بها إلى جنوب إفريقيا.

ما يدهشك ان مانديلا يعترف امام المحكمة (لا انكر انني خططت للتخريب، وانني احد مؤسسي رمح الامة،" الجناح العسكري للمجلس الوطني الافريقي"، وانني خضعت اثناء وجودي في الخارج لدورة عسكرية تدريبية، ودرست فن الحرب والثورة).. مبررا بان خمسين عاما من اللاعنف لم تجلب للشعب الافريقي سوى المزيد من التشريعات القمعية.

ويدهشك انه يعلن امام المحكمة (اقر بانني اجريت الدراسات لاعد نفسي للدور الذي قد أعبه اذا ما تحول الصراع الى حرب عصابات). موضحا لأعضاء المحكمة (بانني تجررت في تفاصيل هذه المسألة باكملها من شرقها الى غربها، وعدت الى كلاسيكيات كلاوزفيتز "جنرال ومؤرخ حربي روسي"، وتناولت افكار من ماوتسي تونغ وتشى غيفارا من جهة وكتابات حرب الانجلو بوير " بين بريطانيا وجمهورية البوير 1899-1902 " من جهة ثانية).مؤكدًا بأنه لم يكن يوما شيوعيا ولكنه يحترم الحزب الشيوعي الافريقي ومتعاون معه بالرغم من قانون حضر التعاون معه.

استمرت محاكمة ريفونيا احد عشر شهرا ويوم،حكم على مانديلا وثمانية من رفاقه بالسجن المؤبد.ولحظة اقتيدوا الى السجن،كانت اللافتات ترفرف بعبارة (لن نقضوا عقوبتكم هذه طالما نحن على قيد الحياة).. ورفع مانديلا ابهامه في اشارة منه على دعمه لابناء شعبه مرددا باعلى صوته (افريقيا).

وطموحاتهم التي كانت تبدو لكثيرين بأنها من صنعه المستحيل

كان مانديلا يجلس في قفص الاتهام طوال اليوم في اختبار صعب لقدرة الانسان على التحمل.ومع انه كان يعرف ان عقوبة الخيانة العظمى هي الاعدام،فانه حوّل المحاكمة الى قضية شعبية، وتولى هو مهمة الدفاع عن نفسه وعن قضية وطنه

ان كنت قد اصبحت شيوعيا.ان كنت تقصد بكلمة "شيوعية" انني انتسب الى الحزب الشيوعي، وتبنيت نظريات ماركس، ولينين، وستالين، وانجلز الملتزمين بصرامة بمبادئ الحزب..بهذا المعنى، لا، لم اصبح شيوعيا

لا يمكن لمحاكم البلاد ان تكون محايدة ونزيهة. انني اشعر بالقمع من جو الهيمنة البيضاء والظلم للانساني الممارس علينا.انا بلا ارض، لأن الاقلية حظيت بنصيب الاسد في بلدي واجبرتني على العيش في مخيمات الفقر المدقع..

استمرت محاكمة ريفونيا احد عشر شهرا ويوم،حكم على مانديلا وثمانية من رفاقه بالسجن المؤبد.ولحظة اقتيدوا الى السجن،كانت اللافتات ترفرف بعبارة (لن نقضوا عقوبتكم هذه طالما نحن على قيد الحياة)

توطئة

يشارك حكام العراق ونيسلون مانديلا بصفة انهم (مناضلون سياسيون) مع انهم لم يتعرضوا لسجن دام 27 عاما في اشغال شاقة و حياة قاسية كالتى تعرض لها مانديلا .ويشتركون ايضا في انهم تولوا السلطة واصبحوا حكاما بغض النظر عن وسيلة او اداة التغيير .
هذه المقالة تتحدد بمقاربات بين نيلسون مانديلا حين اصبح حاكما لجنوب افريقيا وبين حكام العراق الذين استلموا السلطة في 2003.

الحاكم القدوة

تمتاز شخصية مانديلا بانه كان يمثل الحاكم القدوة في انتمائه الخالص لوطنه وفي حبه لكل ابناء شعبه بغض النظر عن اللون والعرق والجنس، نجم عنها ان تعززت لدى المواطنين الافارقة سيكولوجيا التماهي، اي التوحد بشخصية القدوة والتحلي بصفاته والافتداء بافعاله . وباستثناء عبد الكريم قاسم فان السلطة في العراق بعد الجمهورية الاولى لم تفرز حاكما قدوة . ومقاربة بين مانديلا وحكام ما بعد التغيير 2003 نجد ان مانديلا اصلح الشخصية الجنوبية الافريقية وبعث فيها ، حين استلم السلطة ، قيمه وحب الآخر للاخر والوطن ، فيما السلطة الحالية في العراق افسدت الشخصية العراقية . اقبحها اشاعة التعصب للهوية الطائفية التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من الضحايا الابرياء .. والتي قادت احزاب الاسلام السياسي الى خطيئة كبرى على صعيد الدولة بأن تحولت وزارات الدولة الى (دويلات) كل وزارة فيها (حصه) او تابعة الى حزب او كتل او عشيرة، نجم عنه فشل الحكومة في ادارة شؤون الدولة والناس . ونلفت الانتباه هنا الى قضية سيكولوجية خطيرة تخص التعصب .

ان المتعصب، في تحليلنا، شخص مصاب بالحوال الادراكي او قل عنه (احول عقل)، ونعني به انه يعزو الصفات الإيجابية إلى شخصه وجماعته التي ينتمي إليها، ويعزو الصفات السلبية إلى الجماعة الأخرى التي يختلف عنها في القومية أو الطائفة أو الدين . والمؤذي فيه انه في حالة حصول خلاف أو نزاع بين الجماعتين فإنه يحمل الجماعة الأخرى مسؤولية ما حدث من أذى أو أضرار ، ويبرئ جماعته منها، حتى لو كانت شريكاً بنصيب اكبر في أسباب ما حدث .. وهذا ما دفعنا ثمنه ضحايا وفواجع .

خدمة الناس و اعمار الوطن

عمل مانديلا على اعادة هيكلة البناء الاقتصادي ومؤسسات الدولة بما يخدم ابناء شعبه ويحقق حياة كريمة للمواطن وازدهارا للوطن في مدة حكمه القصيرة (1994-1999) . وباستثناء عبد الكريم قاسم الذي اعتمد معايير الكفاءة والخبرة والنزاهة، ومبدأ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب في اغلب اختياراته، وحقق حياة جيدة للمواطن العراقي وعمل على اعمار الوطن، واحمد حسن البكر الذي حقق في السبعينيات وضعاً اقتصادياً مثالياً للعراقيين، وجرى اعمار شامل للوطن، فإن حكام ما بعد التغيير اعتبروا العراق غنيمة لهم فاستفردوا بالسلطة والثروة ، وازداد الوطن في زمن حكمهم خراباً وازداد الناس فقراً ويؤسا مع انهم حكموا (16) سنة! .

القيم الاخلاقية

يمثل مانديلا نموذجا في القيم الاخلاقية لأنه كان يدرك ان الناس ينظرون له بوصفه قدوة، وان القدوة يجب ان يكون نموذجا في القيم، ويدرك حقيقة سيكولوجية اخرى هي ان القيم هي التي تحدد اهداف وافعال الناس . واذا استثنينا عبد الكريم قاسم واحمد حسن البكر، فان زمن حكام ما بعد التغيير شهد تدهورا مريعا في الاخلاق اخطرها ان المواطنة، بوصفها قيمة اخلاقية، التي كانت شائعة في الأنظمة الملكية والجمهورية، انهارت بزمن الطائفيين، وصار الناس يعلون الانتماء الى الطائفة والقومية والعشيرة على الانتماء للوطن .. وتلك كانت وما تزال أخطر قيمة اخلاقية خسرها العراقيون، فضلا عن التفكك الاسري

تمتاز شخصية مانديلا بانه كان يمثل الحاكم القدوة في انتمائه الخالص لوطنه وفي حبه لكل ابناء شعبه بغض النظر عن اللون والعرق والجنس

ان تعززت لدى المواطنين الافارقة سيكولوجيا التماهي، اي التوحد بشخصية القدوة والتحلي بصفاته والافتداء بافعاله

ان مانديلا اصلح الشخصية الجنوبية الافريقية وبعث فيها ، حين استلم السلطة ، قيمه وحب الآخر للاخر والوطن

السلطة الحالية في العراق افسدت الشخصية العراقية . اقبحها اشاعة التعصب للهوية الطائفية التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من الضحايا الابرياء

ان المتعصب، في تحليلنا، شخص مصاب بالحوال الادراكي او قل عنه (احول عقل)، ونعني به انه يعزو الصفات الإيجابية إلى شخصه وجماعته التي ينتمي إليها، ويعزو الصفات السلبية إلى الجماعة الأخرى التي يختلف عنها في القومية أو الطائفة أو الدين

عمل مانديلا على اعادة هيكلة البناء الاقتصادي ومؤسسات الدولة بما يخدم ابناء شعبه ويحقق حياة كريمة للمواطن وازدهارا للوطن في مدة حكمه القصيرة (1994-1999)

أن حكام ما بعد التغيير

وتضاعف حالات الطلاق وشيوع النفاق لاسيما النفاق الديني والتعلق السياسي والوصولية، ونجاحهم في اقامة ديمقراطية جماهير مغيب وعيها وغير نزيهة.

· الفساد

يمثل مانديلا نموذجا للحاكم النزيه الذي لم يستغل منصبه في اثناء غير مشروع. غير اننا نمتلك حاكما واحدا في تاريخ العراق يمثل نموذجا يفوق مانديلا في النزاهة هو عبد الكريم قاسم. فالرجل عاش براتبه وما امتلك رصيда في البنك، وما كان له قصر او بيت لرئيس الجمهورية، بل كان ينام بغرفة بوزارة الدفاع..ولهذا لم يجرؤ في زمانه وزير او مسؤول على اختلاس او قبول رشوة او التحايل على مقابلة، فيما حكّام اليوم يسكنون في قصور مرفهة ويتقاضون رواتب خيالية، لو جرى تخفيضها بنسبة 50% لوفرت للدولة "14 مليار دولار سنويا!.. وفقا للخبير الاقتصادي ابراهيم المشهداني".

والأقبح على الصعيد الاعتباري للحاكم والخطر سيكولوجيا على المجتمع هو: تبادل الاتهامات بالفساد بين رجال دين صاروا مسؤولين، وتورط رجال دين آخرين باعمال تحسب على الارهاب، وتناقض افعال مسؤولين (دينين) في السلطة مع اقوالهم، وعدم امتثالهم لتوجيهات ونصائح المرجعيات الدينية. نجم عنها انها اوصلت الفرد العراقي الى حوار داخلي مع النفس: (اذا كان اهل الدين ومن يفترض بهم ان يكونوا قدوة، غير ملتزمين بالقيم الدينية فما الذي يدعوني انا الانسان البسيط الى الالتزام بها.. وقد ضاقت بنا سبل الحياة؟).

· الكرسي وسيكولوجيا الخليفة

تولّى مانديلا السلطة لدورة واحدة (1994-1999) وغادر كرسي الحكم رافضا الترشح لدورة ثانية، فيما تتحكم في الحاكم العربي سيكولوجيا الخليفة في التمسك بالبقاء على الكرسي الى يوم يخصه عزرائيل بالزيارة في حال ينطبق عليه تبرير نزار قباني:

كلما فكرت ان اتركهم

فاضت دموعي كغمامة

فتوكلت على الله

وقررت ان اركب الشعب

من الان الى يوم القيامة.

· أغنى بلدين.. في مفارقتين

تمتاز جنوب افريقيا انها اغنى دولة في القارة الافريقية، وكان الافارقة يعيشون تحت نير الفقر والبؤس، فنقلهم مانديلا ورفاقه بالتعاون مع القوى التقدمية والحزب الشيوعي الافريقي الى العيش بحياة كريمة وتقدم حضاري والانشغال بتحقيق مستقبل افضل.

ويمتاز العراق بانه اغنى دولة في اسيا، فيما ادلّ شعبه حكّام الخضراء واحزاب الاسلام السياسي، واوصلوا اكثر من خمسة ملايين الى ما دون خط الفقر، واشاعوا التكفير الخرافي، واشغلوا الناس بالماضي لينسوا بؤس الحاضر.

· المقاربة الاخيرة

حكمت جنوب افريقيا حكومة اقلية بيضاء استفردت بالسلطة والثروة والامتيازات، وتحكم العراق حاليا حكومة اقلية خضراء استفردت ايضا بالسلطة والثروة والامتيازات. وقد حدد مانديلا اربع وسائل للتخلص من حكومة الاقلية: تخريب، حرب عصابات، ارهاب، وثورة مفتوحة.. بدأها بالتخريب بعد ان يئس من

اعتبروا العراق نخيمة لهم فاستفردوا بالسلطة والثروة ، وازداد الوطن في زمن حكمهم خرابا وازداد الناس فقرا وبؤسا مع انهم حكموا (16) سنة!

يمثل مانديلا نموذجا في القيم الاخلاقية لأنه كان يدرك ان الناس ينظرون له بوصفه قدوة، وان القدوة يجب ان يكون نموذجا في القيم

صار الناس يعلنون الانتماء الى الطائفة والقومية والعشيرة على الانتماء للوطن.. وتلك كانت وما تزال اخطر قيمة اخلاقية خسرها العراقيون، فضلا عن التفكك الاسري

يمثل مانديلا نموذجا للحاكم النزيه الذي لم يستغل منصبه في اثناء غير مشروع. غير اننا نمتلك حاكما واحدا في تاريخ العراق يمثل نموذجا يفوق مانديلا في النزاهة هو عبد الكريم قاسم

تولّى مانديلا السلطة لدورة واحدة (1994-1999) وغادر كرسي الحكم رافضا الترشح لدورة ثانية، فيما تتحكم في الحاكم العربي سيكولوجيا الخليفة في التمسك بالبقاء على الكرسي الى يوم يخصه عزرائيل بالزيارة

حدد مانديلا اربع وسائل للتخلص من حكومة الاقلية: تخريب، حرب عصابات، ارهاب، وثورة مفتوحة.

توحيد القوى المدنية والتقدمية في جبهة تلزم نفسها

بميثاق عمل وطني يتبنى
استراتيجية علمية تطبق على
مراحل بما يحقق العدالة
الاجتماعية للناس ويستعيد
مكانة وهيبة الدولة العراقية

هل سيحصل هذا؟.. تلك هي
مهمة المثقفين عبر التاريخ،
والمثقفون العراقيون كانوا
في الطليعة.. وسيبقون..
ونرجو ان لا يكون حالنا حال
(غودو الذي يأتي ولا يأتي!).

التظاهرات والاحتجاجات السلمية والاعتصامات والاضراب عن العمل.

فأي من تلك الوسائل تمكّن العراقيين التخلص من حكومة اقلية استفردت بالسلطة والثروة والامتيازات
واستهانت بالشعب بعد ان جربّ التظاهرات والاحتجاجات منذ شباط 2011 دون جدوى؟

الجواب، لا وسيلة من جميعها تنفع، وليس امام العراقيين غير وسيلة واحدة في متلازمتين:

الاولى: توحيد القوى المدنية والتقدمية في جبهة تلزم نفسها بميثاق عمل وطني يتبنى استراتيجية علمية
تطبق على مراحل بما يحقق العدالة الاجتماعية للناس ويستعيد مكانة وهيبة الدولة العراقية.

والثانية: توحيد المثقفين في برنامج يستهدف اشاعة الوعي الانتخابي والتبشير بالمستقبل، والتوقف
عن اشاعة ثقافة التئيس، ومعالجة عقدة (تضخم الانا) التي تتحكم في كبار المثقفين العراقيين.

فهل سيحصل هذا؟.. تلك هي مهمة المثقفين عبر التاريخ، والمثقفون العراقيون كانوا في الطليعة..
وسيبقون.. ونرجو ان لا يكون حالنا حال (غودو الذي يأتي ولا يأتي!).

*نص المحاضرة التي اقامها نادي المدى للقراءة في كوردستان 20 تموز 2019.

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Documents/DocQuassimNelsonMandela.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقبيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

*** **

الكتاب السنوي 2019 "1" شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفي شمعتهما الثامنة عشر من التأسيس وتدخل عامها السابع عشر على الوجود

18 عاما من الكد... 16 عاما من التواصل "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الوجود: 2003/06/13)



كامل الاصدار

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>